Université
Aboubekr Belkaïd
Tlemcen

جامعة
أبو بكر بلقايد

جامعة تلمسان

قسم العلوم الاجتماعية "شعبة الأنثروبولوجيا"

سنة ثالثة انتربولوجيا

محاضرات مقياس

أنثروبولوجيا الفن

الدكتورة بكوش المولودة قشيوش نصيرة

2020

الحرف التقليدية الفنية في الجزائر

النسيج نموذجا.

يشكل التراث بجوانبه المادية والرمزية العلامة المميزة لكلّ أمة من الأمم وهويتها المتفردة، إنه يؤسّس هوية شعب ما، وهو العطاء الحضاري القويّ الذي يصُبّ في تراث الإنسانية، ويسهم في ثرائها وغنائها.

ولذلك تعتبر مظاهر الحياة الشعبية من فنون وتقاليد محلية من معالم الاصالة في الفنّ والتراث والصناعة والحرف التقليدية مظهر من الحياة الشعبية والتي تعبّر عن الثقافة الفنية وتمثّل هويّة مجتمع ما.

ومن بين الحرف والصناعات التقليدية الّتي تحمل طابعا فنيا: صناعة النّسيج ونخصّ بالذّكر اللّباس التلمساني في العصر الزياني.

وقبل الحديث عنه لا بدّ من تحديد المفاهيم التي تتعلّق بالنّسيج.

تعريف الحرفة:

جاء في معجم المعاني الجامع: الحرفة مهنة، صنعة، وسيلة للكسب من صناعة وزراعة وتجارة

وجاء في الاصطلاح: الحرفة بكسر الحاء: الطعمة بضم الطاء(مصدر الرزق والعمل) والصناعة التي يرتزق منها، وهي جهة الكسب وقيل: هي عمل يمارسه الانسان اما لمصلحته او لدى الاخرين بحيث لا تحتاج لتدريب طويل المدى.

تعريف النّسيج:

لقد جاء في المعجم العربي لأسماء الملابس للدكتور رجب كبد الجواد إبراهيم:

النّساجة: بالكَسْرِ ضربٌ من الملاحف منسوجة، كأنّما سُمِيت بالمصدر، وفي حديث جابر: "فقام في نِسَاجَةٍ مُلتَحِفًا بها. ونَسَجَ الحَائِكُ الثَّوْبَ يَنْسِجُهُ ويَنْسُجُهُ نَسْجًا: ضَمَّ السَّدَى إلى اللُّحْمَةِ، وهو النسَّاجْ، وحِرْفَتُهُ النِّسَاجة وقال ابن الأعرابي: النُّسُجُ: السَجّاداتُ.[1]

والنَّسْجُ: ضَمُّ السيئُ إلى السّيئ، هذا هو الأصل، ونَسَجَ الحائك الثَّوب، من ذلك لأَنَّهُ ضَمَّ السَّدَى إلى اللُّحْمَةِ.

وقد وردت كلمة نسيج مضافة إلى كلمة كتّان عند الرحّالة الأندلسي ابن جبير و تعني: الثّياب المتخذة من الكتّان.

ويُحدّثنا ابن بطّوطة أنّ الأتراك كانُوا يطلقون على نوع من الثِّياب الحريرية المذهّبة اسم: النّسيج، وذلك في قوله: "وعلى الخاتون حلة يقالُ لها النَّحْ، ويُقالُ لها أيضًا النَّسيج، مرصَّعة بالجوهر.

والنّسيج: هو مادّة مرنة تتكوّن من شبكة من الخيوط أو ألياف النّسيج، إمَّا أن تكون ألياف طبيعية[2] أو ألياف اصطناعية.[3]

تعريف صناعة النّسيج:

إنّها المهنة التي تشمل كلّ عمليات الحياكة أو دمج نوعين من الخيوط معًا، وأحيانًا دمج أكثر من نوعين لإنتاج الأقمشة مختلفة الألوان والتصاميم والاستخدامات، وهناك أنواع متعدّدة من النّسيج أهمّها:

1- الأصبهاني: هو من الأقمشة التي ذاعت شهرتها في العالم الإسلامي في العصور الوسطى. وسمّي هذا القماش بالأصبهاني نسبة إلى أصبهان مدينة من المدن الإيرانية[4].

2- الإفريقي: اشتهرت بهذا القماش مدينة تونس التي كانت تقوم بزراعة القطن والعصفي وكان هذا القماش يصنع من القطن أو الكتان أو منهما معا.[1]

---

[1] - رجب عبد الجواد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث دار الآفاق العربية، القاهرة، ص 176.

[2]- ألياف طبيعية (أو غيرها من المواد المركّبة صناعيا).

[3] - ألياف اصطناعية (مثل النايلون والأكريليك).

[4]- مرزوق محمد عبد العزيز: الفنون والزخرفة في بلاد المغرب والأندلس ب، ت ص 124.

3- جرايناديـن: تعتبر من بين الأقمشة التي كان الأوربيون يعرّفونها باسم جرايناديـن: تعتبر من بين الأقمشة التي كان الأوربيون يعرّفونها باسم Granada وما هو معروف لدى الجميع بمدينة غرناطة.[2]

4- الجرجاني: سمي هذا القماش بالجرجاني نسبة إلى مدينة جرجان الموجودة بإيران والتي اشتُهِرت به كثيرًا لكنّه يُعتبرُ أيضًا من المنسوجات الأجنبية التي كانت تنتجها مدينة ألمرية (Alméréa) الأندلسية.[3]

5- الحرير: تطوّرت صناعة الحرير في الأندلس بفضل تربية دودة القزّ التي أدخلت إلى الأندلس في القرن 4هـ على يد أسرة من الشام، بحيث ازدهر استخراج الحرير وأصبح يصدّرُ منه في سائر البلاد.

6- الدمشقي: تعتبر من بين الأقمشة التي اشتقّ اسمها من بلدان عربية ونعرف هذا القماش باللّغة الأوروبية Damasks وقد اشتقّ اسمها من دمشق التي كانت مركز التجارة الإسلامية.[4]

7- الديباج: نوع من الأقمشة الحريرية التي كانت معروفة في الشرق قبل الإسلام، ثمّ استمر" نسجه بعد ظهور الإسلام وكان يُصنع من خيوط الحرير وتدخل في نسجه خيوط الذّهب أو الفضّة وهو المعروف في المراجع الأجنبية باسم البروكاد (Brocade).[5]

8- القطيفة: هي قماش من الحرير يمتاز بوجود خمر على سطحه وهي أنواع مختلفة من أهمّها: "الكمخة" وكان شائعا عن سلاجقة الرّوم.

- صناعة النّسيج في تلمسان في العهد الزياني:

كانت صناعة النّسيج في تلمسان من أهمّ الصّناعات الرّئيسية في العهد الزّياني بسبب حاجة النّاس الماشة إليها كاللّباس والأفرشة والأغطية.

---

[1] - المرجع نفسه ص 121.
[2] - زكي محمد حسين: فنون الإسلام –بيروت-، 1981، ص 364.
[3] - مرزوق محمد عبد العزيز: المرجع السابق ص 124.
[4] - زكي محمد حسن: المرجع السابق، ص 346.
[5] - مرزوق محمد عبد العزيز، ص 124.

ويهتمّ أهل تالجزائر نساء ورجالاً بمظهر الملبس حيث كانُوا يلبسون أحسن الثياب، ويعتنون بالهيئة والهندام، ويلبس الأغنياء ألبسة من القطن والحرير والكتّان والصّوف الرّفيع الذي تشتهر به المدينة وكانوا يلبسون أثوابًا مستوردة من الأندلس وإفريقية لأنّ تجّار هذه الأخيرة كانوا يُصدّرون الكتّان التّونسي إلى تلمسان، ويأخذون منها أخمالاً من الصّوف الرّفيع... وكان سلاطين المغرب وتونس يستحسنون الملابس التّلمسانية وما يصنع منها من أقمشة، ولاسيما منها أقمشة الصّوف الرّفيع والدّليل على ذلك أنّ أحد سلاطين تونس أراد أن يتباهى بِدِقّة صناعة الأحارم وخِفَّتِها، فَأَرسل إلى أمينَ الحياكة بتلمسان وصاحب صناعة الصّوف الرّفيعة أبي زيد النجّار بعض الأحارم التّونسية، تزنُ الواحدة منها خمس أواقي، فَرَدَّ عليه أبو زيد بأحارم تلمسانية، من صنع ورشَاتِهِ تَزِيدُ عنها طولاً وعرْضًا، وتنقُصُ عنها وزنًا بأوقية ونصف أوقية.[1]

وكان السّلطان أبو الحسن المريني، يكثر من إهداء الأثواب المصنوعة بتلمسان إلى أعوانه وجلسائه، وكانت ملابس الطّبقة الخاصّة فاخرة من الحرير والديباج والقطن والصوف الرفيع. ونظرا لجودة وفخامة وجمال الألبسة التلمسانية تأثّر بها الأعراب من بني هلال، الذين حطّوا رحالهم بمدينة تلمسان وضواحيها فاتّخذوا البرنوس الزّناتي لباسا لهم.

ان فئة الحرفيين قد حققت لنفسها مكانة متميزة وسط المجتمع الجزائري، وربما كان من العوامل المتحكّمة في ذلك، هو اهتمام السّلاطين الزّيانيين بالصّناعة. فقد كان السّلطان أبو حمّو موسى الثّاني يعتني بالحرف ويقدّر أصحابها. وهو من وضعهم في مرتبة اجتماعية تلي مرتبة الأشراف والفقهاء مباشرة عند جلوسه لاستقبال مختلف فئات المجتمع التلمساني في قصره بالمشور في يوم الجمعة من كلّ أسبوع.[2]

---

[1] – عبد العزيز فلالي، تلمسان في العهد الزياني ENAG EDITION، الجزء الأول موفم للنشر والتوزيع الجزائر، 2002 ص 267.

[2] - تلمسان الإسلامية، بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، الجزء الثاني، ص 35.

كما كان سهل وادي الوريط بضواحي تلمسان يحتوي على مجموعة من الورشات الصناعية، أسّسها المهاجرون الأندلسيون، ونقلوا إليها صناعة الأطرزة والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتّان والصّوف...[1]

كما كان للمرأة دور كبير في مجال المنسوجات والطّرز في العهد الزياني، فقد كانت تشتغل في الورشة أو في عقر دارها. فكانت تشتري الصوف وتتصرف فيه بالغسل والمشط والغزل والنّسيج ثم يسوق بعد ذلك. كما كانت تنسج البرانس للرجال والبرينسات للأطفال وكذلك الزرابي والحنابل. لقد كان للمرأة التلمسانية يد ماهرة في صنع الأثواب الصوفية.

كما لا ننسى أنّها برعت أيضا في الطّرز والزخرفة فكانت تعمل على طرز (مخدّات) و (سطارم) لبيتها بالحرير الخالص، كما تقوم بطرز المناديل والستائر وتزخرفها بأنواع من الزهور ذات الألوان المختلفة الزاهية.

دون أن ننسى ما كانت تقدّمه أناملها في طرز اللباس كالقفطان مثلا والبلوزة وألبسة الحمّام كالفوطة، والبنيقة والمنديل.

لقد كان لهذه الحرفة مركزٌ أو فضاءٌ داخل البيت للتلمذة الصناعية، يتدرب فيها البنات لاكتساب المهارات ومعرفة أسرار هذه الحرفة.

لقد برعت الصانعة في هذه الحرفة ولعلّ السّبب يعود في ذلك إلى المهارة اليدوية والفنية التي كانت تتمتّع بها الحرفية الجزائرية نظرا لتحكمها في تقنيات هذه الصّنعة، لقد لعبت هذه الحرفة دورا هاما في الحياة الاقتصادية للمدينة في العهد الزياني وهذا راجع إلى الأهمية التي كان يولّيها المجتمع التّلمساني لمثل هذه الصناعات.

كما أن المستوى الحضاري الذي بلغته مدينة تلمسان في الصّناعة خصوصًا في العهد الزياني، كان بفضل مساهمة الأندلسيين الذين برعوا في النسيج والطرز والخياطة. فقد أضاف الأندلسيون كثيرا للخبرة التلمسانية بفضل تحكمهم في التقنية الصناعية التي تطورت

[1] - عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص 221.

في مدن بلنسية وإشبيلية وسرقسطة وغيرها... لقد ساهم الأندلسيون المسلمون والنّصارى في تطوير الصناعات التقليدية التّلمسانية بقسط وافر، إلى جانب العناصر المحلية.

لقد نجم عن الهجرة الأندلسية إلى تلمسان في عهد السّلطان يغمراسن أن زاد في تطور صناعة النّسيج بعدما اشتغل التلمسانيون في الطرز ونسيج الحرير وحياكة القطن والكتّان وغزل الصّوف، ويؤكّد على هذا ابن الأعرج في قوله: "وكان لعهد نزول الأندلسيين بها (تلمسان) مزدادة بالمصانع المفيدة، فما شئت من أطرزة ومنسوجات الحرير والقطن والكتّان والصوف".[1]

لقد عرف المجتمع الجزائري في العهد الزياني تطورا ملحوظا في صناعة النّسيج، لاسيما بعد النزوح المورسكي واليهودي أثناء سقوط غرناطة، فكان لها الأثر الكبير في التأثير على اللباس فعرفت عندئذ نماذج ملابس ذي الخصائص المورية الجديدة منها القفطان والشاشية والحلي اليهودي الفاخر.[2]

لقد كان اليهود يطرّزون القطيفة وألوان أخرى من الكتّان ليصنعُوا منها قفاطين، وهي صناعة معروفة عندهم.

كما لعبت التّجارة الخارجية أيضا دورا هامًّا في تنوّع المنسوجات في تلمسان. لقد كانت هذه الأخيرة تستقبل التجّار من كلّ صوب. وظلّ أهمّ مكان للبيع والتبادل التجاري "القيصرية" أين كان يتجمّع مختلف التجّار سواء من أهل المدينة أو من مسحيين ويهود والذي كان عددهم هائل بمدينة تلمسان.[3]

كما كانت تصل إلى المدينة مختلف المنتوجات من الأندلس خاصة، التي كنيت كثيرا بصناعة المنسوجات ويكفي أن نذكر أهمّ مدينة من مدن الأندلس وهي ألمرية (Almeréa)

[1] - عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق ص 219.

[2] - الشيخ حكيم، مدينة الجزائر الأوضاع الاجتماعية والأنتربولوجية، 1945، 1954م دار هومة، ص 187.

[3]- George Marcais : « histoire de Tlemcen » 1950 p90.

والتي كان لها عدد كبير من دور الطراز، بلغ ثمان مائة طراز، وكان بها معمل للنسيج يصنع بها الديباج وصنوف أخرى من نسيج الحرير، وعرفت مالقة بالموشى المذهّب.

وكانت دور الطراز مؤسسات حكومية تعين الدولة على رأسيها موظفا يعرف بناظر الطراز أو صاحب الطراز. ومهمته مراقبة الجودة ووضع اسم الخليفة على النسيج. وانتشرت هذه المعامل في كل أرجاء الأندلس التي كانت مطلوبة جدا وكان المنصور بن أبي عامر يهدي الأمراء المسيحيين قِطَعًا كثيرة من الحرير الطرازي وغيره.

لقد كانت تعمل هذه المدينة "ألميريا" على بعث مختلف السلع والمنسوجات إلى بلاد المغرب ولاسيما إلى مدينة تلمسان التي حضيت باستقبال عدة قطع وأقمشة حريرية.[1] لكن لم تكن عملية الاستراد من ألميريا فقط بل حتى من فرنسا وإيطاليا ومختلف البلدان المسيحية.

خلاصة القول نقول إن تلمسان من المدن الصناعية الهامة في الجزائر، ولعل أكبر عامل، ساعد على نجاح الحياة الاقتصادية موقعها الاستراتيجي الذي جعل منها "قاعدة المغرب الأوسط وعاصمته"[2] كما عنونها الإسباني البكري. « El Bekri »

[1]- George Marcais : « histoire de Tlemcen » 1950 p 90.

[2] - Marcais , Ibid p 93.